# القصص

## الخبز الأسود

لأناتول فرانس

ترجمة حبيب الموشي

كان في مدينة فلورانسا العظيمة بتقادم عهدها ، الخالدة بنفيس متاحفها ، رجل وافر الثراء يقال له نقولا نزلي ، وكان اذا طلعت الشمس يتروّى في مخدعه ، ويلبث سحابة نهاره جالساً الى مكتبه يخط في دفاتره أرقاماً وينقل أخرى . وكان عامل البلاد وبابا الكثلكة مدينين له بمبالغ باهظة ، ولم يكن يعامل المراوغين والمكرة وخافري الذمم محاذرة منهم ، ومخافة أن يقع في حبائلهم ويعرض أمواله للضياع . وكان من أجل هذا يقظاً حذرا ، وقد جمع أموالاً وافرة ، وجرّد مدينيه الكثيرين من أملاكهم ومتاعهم ومقتنياتهم . وكان أهالي فلورانسا يجلونه ويخصونه بالاحترام من أجل ثرائه ، وكان يقطن قصراً له لا يدخله النور إلا من كوّى ضيقة مستديرة ، لأن الحرص والحرس يحدوان الأغنياء الى تحصين دورهم وإيصاد أبوابها ليصونوا ما حشدوه فيها من أموال وكنوز وحلى ، جمعوها بالافك والمخاتلة والخداع . ومن أجل هذا أيضاً كان قصر نقولا نزلي محاطاً بالأسوار العالية المنيعة والسلاسل الحديدية الصلبة الثقيلة .

وكان قد استقدم أمهر الفنانين وأحذقهم ، فرسموا له على جدران القصر الداخلية صور فتيات فاتنات ، يرمزن الى أسنى الفضائل وأسماها ، وصور أحبار اسرائيل وأنبيائه وملوكه . وكان معلقاً على جدران بعض الغرف كثير من النسائج الموشاة بفتوحات الاسكندر وتربستيان ووقائع حروبهما العظيمة كما هي متناقلة بالتواتر ومدونة في بطون التواريخ .

وكان يطيب لنقولا نزلي هذا أن يظهر سواطع ثروته بما كان يأتيه من أعمال الخير : فأنشأ على نفقته خارج أسوار المدينة مستشفى نقشت على أفاريزه رسوم ترمز الى أمجد أعمال حياته . وقد علق الفلورانسيون رسمه في محراب المعبد الجديد المشيد على اسم العذراء مريم ، عرفاناً بجميله ، وتخليداً لذكرى مبالغ وافرة تبرع بها لاتمام بناء هذا المعبد . وقد مثل في هذا الرسم مضموم اليدين جانياً على قدمي العذراء . وكان يدل عليه في صورته هذه وجهه الشاحب الكالح ، وعيناه الحادتان ، وقبعته الحمراء ، وديثار مفرى اعتاد الظهور به في المجتمعات . وكان رسم زوجه «منى يسمانتونا» معلقاً في المحراب أيضا في الجهة المقابلة ، قرب صورة العذراء ، وكان الرسم يمثلها في موقف الصلاة وعلى وجهها بادية سمات الكآبة والخفر والخشوع دلالة على احتفاظها بعفافها

وقد كان نزلي فوق هذا في طليعة المواطنين الذين أسسوا الجمهورية ؛ فلم يخالف يوماً شيئاً مما سن في البلاد من شرائع ووضع من نظم ، ورسم من مراسيم ، وفرض من قوانين . ولم يُعن قط بشؤون البؤساء والمعوزين ، ولم يتدخل في أمر من قضى عليهم رجال الحل والعقد بالعقاب أو التغريم أو الابعاد ، بحيث لم يفقد في أعين القضاة ورجال السلطة شيئاً مما أحرزه لديهم من مكانة ومقام ، بوافر ثروته وحسن سيره وانقياده .

ففي ذات مساء من أيام الشتاء عاد الى قصره متأخراً على غير عادته ، فوجد نفراً من المتسولين نصف العراة محتشدين امام الحديقة . فلما ابصروه احتاطوا به وبسطوا له ايديهم مستجدين . فزجرهم بعنف وانهال عليهم بالسب والشتم واقصاهم عنه بفظ الكلام وقارسه فتفرقوا حلقات واجمين جزعين — غير ان الجوع وقد أخذ مأخذه منهم حملهم على لم شعثهم واعادة الكرة على نزلي فرجعوا كأنهم مراجل تغلي واحتاطوا به ثانية بشكل نصف دائرة وطفقوا يضجون ويولولون ويلغطون ويصيحون صيحات عائل عواء الذائاب الضارية واخذوا يسألونه باصوات ملؤها التهدج والتهديد خبزاً يأكلونه فهم بالانحناء على الأرض

ليلتقط حجارة يرشقهم بها، ولكنه أبصر احد غلمانه آتيا وعلى رأسه طبق عليه ارغفة من الخبز الأسود جاء بها ليفرقها على المشتغلين فى اصطبلات القصر ومطبخه وحديقته فأومأ اليه كى يدنو منه، ولما قرب شرع نزلى يملأ يديه على اولئك الجياع ذلك الخبز الأسود فهاجوا وماجوا وهجموا فى هرج ومرج يدفع بعضهم بعضاً متزاحمين متسابقين على تلقف تلك الأرغفة والتقاطها، ولما خف صخبهم وسكن لغطهم وهدأت ثورتهم وحنقهم دخل نزلى فى داره ونام، وفيما هو مستغرق فى رقاده أصيب بضربة مخية أودت بحياته وكان موته سريعا جدا بحيث خيل اليه انه لم يزل بعد على قيد الحياة. وبعد هنيهة شعر أنه فى مكان مقفر مظلم ثم ابصر ميكائيل رئيس الملائكة آتيا اليه قدماً وهو يحمل قسطاسا ذا كفتين، فلما ادركه الملك اخذ يضع فى احدى الكفتين ما كان فى حيازة نزلى من حلى أرامل واموال أيتام وقطع ذهبية وحجارة كريمة ونقود مختلفة كان أحرزها بالغش والربا الفاحش — ففهم نزلى انه قبض وانه انما جىء به الى ذلك المكان ليحاسب

فقال الملك: أما وقد وضعت فى هذه الكفة ما جمعته بالغش والحرام فمن العدل أن تجعل فى الكفة الأخرى ما عملته من مبرات وصنعته من حسنات فأرجو منك ياسيدى أن تجعل فيها ما شدته من معاهد للبر والعبادة: ضع المستشفى العظيم الذى أقمته خارج أسوار المدينة، ضع القبة الضخمة التى أنشأتها لمبد العذراء مريم، ضع ... فقاطعه الملك وقال: هدئ روعك يا نزلو واخلد الى السكينة فلن أغفل شيئاً من صالح أعمالك. قال هذا ووضع بيده اللبقة اللطيفة ذينك المستشفى والقبة فى الكفة الأخرى ولكن الأولى ظلت راجحة. فقال نزلى: فتش جيداً لعلك تجد لى أعمالاً صالحة أخرى، ومع هذا أراك أهملت جرن الماء المبارك الذى قدمته لكنيسة القديس يوحنا، وغاب عنك منبر الخطابة الذى صنع على نفقتى فى معبد القديس اندراوس، ونسيت بنوع خاص تمثال عماد السيد المسيح فهو عظيم جداً وقد كلفنى تحته الدقيق البديع المتقن مبالغ طائلة. فجعل الملك كل هذا فى الكفة أيضاً ولكن رجحان الأولى مازال عظيما — فامتقع وجه نزلى روعة وجزعاً وغشى جبينه عرق بارد فأدرك أنه هالك، وتدبر أن الجحيم المعد للخطاة والاشرار سيكون مصيره، ثم التفت الى الملك وقال: أأنت واثق يامولاى من ميزانك وصحته؟ فابتسم الملك وقال: ان قسطاسى وان خالف بشكله موازين مرابى باريس وصيارفة البندقية إلا أنه فى منتهى الدقة والضبط: فقال نزلى أنى يكون هذا؟ أفلا يزيد فى قسطاسك وزن القبة الضخمة والمنبر الكبير والتمثال العظيم والمستشفى الفسيح العالى بكل مافيه من أسرة وعدد ومعدات على وزن قلامة الظفر وقشة الحقل وريشة الطائر؟ فقال الملك: لست أدرى ولكن الأمر كما ترى، فمساويك وآثامك لا تزال حتى الآن ترجح كثيراً على مبراتك وحسناتك. فقال نزلى: وهو يصر بأسنانه وفرائصه ترتعد وركبتاه تصطكان هلماً ورعباً: يا لشقائى! وما عسى أن يكون مصيرى؟ أأنا هالك؟ وهل الى النار مآلى؟ فقال الملك: رويدك يا نزلو انى لم انجز بعد عملى إذ بقى وزن هذه، مشيراً الى أرغفة الخبز الأسود التى ألقاها نزلى مكرهاً على الفقراء المعوزين فى مساء اليوم السابق، ثم جمع الملك تلك الأرغفة وضمها الى ما فى كفة الأعمال الصالحة فاذا بهذه الكفة قد تحركت وبدأت تثقل وتهوى الى أسفل، بينما الكفة الأخرى أخذت تخف وتشيل، ولبثت حركة الكفتين تتراوح هنيهة بين هبوط وصعود حتى سكنت، فاذا الكفتان متعادلتان وزناً ومستوى. فدهش نزلى مما رأى وكأنه لا يصدق عينيه. فقال له الملك: انك والأمر كما ترى لا تستحق الجنة جزاء ولا تستوجب النار عقاباً، فعد اذن الى فلورانسا، وواصل الاحسان على الفقراء عن رضىً ولو بالخبز الأسود، ولا تدع أحداً يحس بالخير الذى تصنعه، وثق بأنك إن فعلت هذا وواظبت عليه تخلص، إذ لا يكفى أن يفتح الله أبواب الجنة للص النادم وللبغى التى تحوبت بغاها وندمت عليه وبكت من أجله وتابت عنه، بل يجب أن يخلص بواسع رحمته من إلتزم غنياً أيضاً، فكن أنت هذا الغنى ووال الاحسان ولو بالخبز بعد أن تبينت مبلغ وقعه وثقله فى قسطاس العدل الالهى.

قال الملك هذا واختفى، وبعد قليل أفاق نزلى من رقدة الموت وجلس فى سريره يتأمل فيما حدث ويعجب مما رأى. ثم نهض بعد أن وطد النفس على العمل بنصح الملك وموالاة المعوزين بالصدقات والحسنات لينال الخلاص — وهكذا لبث طيلة ثلاث سنوات قضاها على الأرض بعد موته الأول كثير الاشفاق على الفقراء، وافر الرحمة على البؤساء والمعوزين، مواظباً على فعل الخير مواصلاً أعمال البر والصلاح.

حبيب الحموى